الفضائل الأخلاقية في الشعر العربي الجاهلي[1]

تميم فاخوري / Tamim FAKHOURY[2]

Geliş: 18.11.2019 / Kabul: 18.03.2020
DOI: 10.29029/busbed.648290

ملخّص البحث

عكس الشعر العربي القديم صور الحياة وأحوال الناس، ونقلَ طباعهم وأخلاقهم وعاداتهم، وقد سعيتُ في هذا البحث لرصد الفضائل والقيم الأخلاقية العليا في ذلك الشعر وتبويبها، وهو بحث لم يتجاوز دواوين أصحاب المعلقات، وذلك بهدف تحديد مساحة البحث، فظهر لنا أنها أربعة عشر خلُقاً، كانت تُعتبر مُثلاً عليا في ذلك المجتمع، وهي الكرم والشجاعة وإغاثة الملهوف وإجارة المستجير وصلة الرحم ورعاية الجار والوفاء والعفّة والإباء والحِلم والصدق والرحمة والعدل والصبر والحكمة (التعقّل) ، وهي أخلاق في الإمكان أن تندرج تحتها تقسيمات لأخلاق فرعية أخرى لو شاء باحث الاستقصاء. ومشيتُ على طريقة التعريف بكل خلُق أو سلوك، والإحاطة الموجزة بمعناه ومقصوده، مستعيناً بمعاجم اللغة وبما يفي بالحاجة من المعاجم الاصطلاحية المتعلقة بالفلسفة والأدب والنقد العربي، واستعنت ببيتين أو ثلاثة من أبيات الشعر في كل فقرة ليكتمل رسم صورة عامة عن الخلق أو السلوك وتطبيقه في حياة العرب من خلال الشعر.

[1]Bu makale Süleyman Demirel Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsünde devam eden "ARAP ŞİİRİNDE AHLÂKÎ DEĞERLER -CAHİLİYYE VE İLK İSLAMİ DÖNEM-" başlıklı doktora tezinden faydalanılarak, Prof. Dr. Nejdet Gürkan denetimi altında hazırlanmıştır.

[2] Doktora Öğrencisi, Süleyman Demirel Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Arap Dili ve Belagatı Anabilim Dalı, tamimfakhoury1@hotmail.com, ORCID: https://orcid.org/0000-0001-5197-2692

يُعدّ هذا البحث غاية في ذاته كما أنه من زاوية أخرى خطوة لإجراء دراسة أخلاقية مقارنة من خلال شعر العصر الجاهلي مع غيره من عصور الشعر العربي.

الكلمات المفتاحية: *الشعر الجاهلي، القيم، الأخلاق، الشجاعة، شعراء المعلقات.*

Cahiliye Dönemi Arap Şiirinde Ahlaki Değerler

Öz

Kadim Arap şiiri, insanların yaşantısını ve durumlarını yansıtmakta, onların duyarlılıklarını, ahlâkî değerlerini ve adetlerini nakletmektedir. Çalışmanın boyutunu sınırlandırmak amacıyla, muallaka şairlerinin divanları çerçevesinde ele alınan bu araştırmada, şiirdeki erdemlerin ve yüksek ahlâkî değerlerin gözlemlenmesi ve sınıflandırılması arzulanmaktadır. On dört ahlâkî davranışın, Cahiliye toplumunda ideal olarak kabul edildiği gözlemlenmektedir. Bunlar; cömertlik, cesaret, sıkıntıya derhal müdahil olma, koruma dileyenleri ağırlama, akrabalarla iyi ilişkiler kurma, komşularla ilgilenme, sadakat, iffet, gurur, takdir, doğruluk, merhamet, adalet, sabır ve sağduyudur. Bu değerler, konuyu daha detaylı araştırmak isteyen araştırmacılar tarafından, farklı alt bölümler içerisinde sınıflandırılabilecek niteliktedir. Çalışmada, her ahlâkî davranışın ve her etiğin tanımlamasına yönelik gayret sarf edilmiş, dil sözlükleri, felsefe, edebiyat ve Araplara has eleştiri yöntemleri ile ilgili diğer terimsel sözlüklerden de istifade edilmiş ve bu değerlerin anlamları ile kastedilen manaları yeterince izah edilmiştir. Buna paralel olarak, Arap yaşantısındaki uygulamalara ilişkin, genel bir tablonun ortaya çıkartılabilmesi gayesinin gerçekleştirilebilmesi amacıyla, her paragrafta iki yahut üç tane şiir beyti alıntılanmıştır.

Bu araştırma, Cahiliye ve Sadru'l-İslâm Dönemi şiiri aracılığıyla, mukayeseli bir ahlâkî inceleme yapılmasını amaçlayan öncü bir adım olarak mütalaa edilebilir. Çalışmanın sonundaysa, Arap toplumuna İslam dini tarafından kazandırılan kavram ve düşüncelerdeki bir takım farklılıklar ve değişiklikler ele alınmaktadır.

Anahtar Kelimeler: *Câhiliyye Şiiri, Değerler, Ahlak, Cesaret, Muallaka şairleri.*

The Ethics in Arabic Jahili Poetry

Abstract

The old Arabic Poetry depicted the life and the various conditions of the people of the age. It conveyed their sensibilities, morals and customs. In this research, I will observe and classify the virtues and the high moral values in that poetry. This is a research that does not go beyond the divans of Al-Muallaqat poets for reasons of not going beyond the limited range of the study. It turns out that about fourteen moral behaviors or ethics were regarded as ideals in that society: Generosity, courage, prompt response to the distressed, protecting the one who seeks out safety, keeping good relations with relatives, taking care of the neighbors, faithfulness, chastity, pride, discretion, truthfulness, mercy and justice, patience and prudence. These are ethics which may have other sub-divisions if a researcher seeks to investigate the subject more. I have adopted the method of defining every moral behavior and every ethic and have provided an adequate account of its meaning and of its intended design, using the dictionaries of the language and other sufficient idiomatic dictionaries related to philosophy, literature and Arabic criticism. Two or three lines of relevant poetry have been included in each paragraph to complete the making of a general perception of every ethic and of its application in the Arabs's lives through poetry.

This research is considered as a step towards the making of a comparative ethical study through the Pre-Islamic poetry and the early Islamic poetry. A number of differences and changes in the ideas and perceptions as caused by the advent of Islamic religion into the Arabic society are concluded at the end of the study.

Keywords: *Pre-Islamic Poetry, Values, Ethics, Courage, Al-Muallaqat poets.*

تمهيد:

الشعر العربي القديم هو شعر غنائيّ تأثر فيه الشاعر بما كان يحيط به، وبما يجري حوله من أشكال الحياة وصورها، وبألوان النشاط الاجتماعيّ المختلفة؛ فكان ينطلق لسانه في صَوْغ وجداني يُسبغ فيه ويُضفي من انطباعاته وتصوراته وأحلامه، وهو صوغ يظل يستقي مادته أصلاً

من الواقع نفسه؛ ثم إن الشاعر حين كان يتناول بالوصف خبراً أو حادثةً، أو شخصاً أو إحساساً، فإنه يقدّمه إلى السامعين والمتلقّين وفقاً لنسقين: وجداني نفسيّ فنّيّ، وآخرَ قِيميّ (أخلاقيّ)، فيتداخلان ويتّصلان بشكل عفوي تلقائي منسجم في شكل القصيدة ومضمونها.

نريد أن نقف على قراءة عامة للقيم الأخلاقية والمثل العليا في الشعر، قبل أن نتتبّعَ مظاهرها وآثارَها في تكوين مضامين الأغراض الشعرية، وغايتنا من هذا عدّة أمور؛ منها الوقوف على طبيعة التعبير الأدبي الشعري المتّصل بموضوعات الأخلاق، ومنها الوقوف على المثل الاجتماعية الأساسية العليا في المجتمع العربي آنذاك، حيث إن الشعر عكس صورة مهمّة لطبيعة الحياة وأنظمتها السائدة، والواقع أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة الواقعية بدقّة في هذا المجال، ولكننا نسعى للتفتيش لكي نعرف صدق الشاعر ومقاربته للواقع الذي يصفه ويتناوله، برغم ما في ذلك من صعوبة بسبب ما اتفق عليه الشعراء ضمناً والنقّاد صراحةً على الفصل بين الصدق الفني والصدق الواقعي أو الأخلاقيّ.

الفضائل الأخلاقية في شعر أصحاب المعلقات

لا يمكن الإحاطة بكل ما ورد من الإشارات الأخلاقية في الشعر، فهذا باب واسع لا قِبَلَ بمثله، خصوصاً إذا ضمَمْنا كل جزء أو فرع منها إلى أصله وإلى باب رئيس يحتويه مع أجزاء أخرى معه.

وقد رأينا أن نختار في تنظيم الأخلاق ترتيباً متدرجاً في النزول، وذلك من حيث بروزُها وظهورُ أثرها الاجتماعي بحسب ما رأينا في الشعر، ومن حيث تفاعلُها بين الشاعر والناس، وهو تصنيف تقريبيّ لغاية تنظيمية، وليس شيئاً حتمياً دقيقاً[3]. وقد وافق هذا النظرَ إشاراتٌ عند علماء الأخلاق، مثلما نجد عند مسكويه الذي تنبّه إلى أهميّة الجانب الاجتماعي في التخلّق بالأخلاق، يقول: "وكل واحدة من هذه الفضائل إذا تعدّت صاحبها إلى غيره تَسمّى صاحبُها بها ومُدِح

[3] انطلق بعض الكُتّاب والباحثين من إطار واسع في تمييز الأخلاق وتحديدها، منهم أحمد الهاشميّ حين تكلم على أخلاق العرب، حيث اكتفى بتسمية "المروءة" فجعلها جامعةً لأخلاق كثيرة، يقول: "وقد تمدّحوا بالمروءة وأكثروا من ذكرها، وهو لفظ يجمع قانون الشرف عماده الشجاعة والكرم والوفاء" (الهاشمي: بلا تاريخ، جزآن. ج2 ص10). وتوسّع بعضهم في تعريف المروءة، فجعلها "صفة تجمع بين الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر". انظر: (وهبة: 1984، 422)، وانظر: (بابكر، 2005)، ولا يفيدنا مثل هذا التقسيم على كل حال لأنه يبعد عن غايتنا التي هي التفصيل والعزل بين الصفات الخُلُقيّة!

عليها. واذا اقتصرت على نفسه لم يُسَمَّ بها بل غُيِّرَت هذه الأسماء. أمّا الجود فإنه إذا لم يتعدّ صاحبه سُمِّي صاحبُه مِنفاقاً.. (مسكويه: 2011، 249)".وهو أمر يدل على انتشار الفضيلة والقيم الأخلاقية عند كثير من شعراء العرب في العصر الجاهلي (حسين أسود: 2007،مج 82، ج4، 804)، وأهم هذه الفضائل:

1- الكرم:

الكريم في اللغة: الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل. فالله عزّ وجلّ كريمٌ حميد الفِعال وربُّ العرش الكريم..الكرم نقيض اللؤم. وتكرم عن الشيء تنزّه. وكتابٌ كريم: حسنٌ ما فيه"(ابن منظور: بلا تاريخ. مادة "كرم"). وكرُم الشيءُ: عزَّ ونَفُسَ"(مجموعة مؤلفين:2004م،مادة "كرم").

ومن معنى الكرم السخاءُ، وهو "بذلُ المال من غير مسألة ولا استحقاق، وهذا الخُلق مستحسَنٌ ما لم ينتهِ إلى السرَف والتبذير، فإنّ من بذل جميع ما يملكه لمن لا يستحقه لا يسمى سخيّاً بل يسمى مُبذّراً مضيّعاً. والسخاء في سائر الناس فضيلة مستحسنة، وأما في الملوك فأمرٌ واجب.." (ابن عديّ: 1993، 63-64).

وقد أدرك العرب فضل خلَق الكرم، وأثره العجيب في استمالة النفوس وإكساب الرضا وإدخال السرور، ولذلك قال محمد بن إدريس الشافعي ناصحاً لمن غمرته النقائص والعيوب الشخصية أمام الناس بأن يلجأ إلى الكرم والعطاء، فهذا يقطع الألسنة ويمحو السيئات، فلا يعلق بالأذهان والنفوس إلا الذكرى العطرة! قال (الشافعي: 1985، 46):

البحر الوافر

وإنْ كَثُرَتْ عُيُوبُكَ فِي البَرَايَا وَسَرَّكَ أنْ يَكُونَ لَهَا غِطَاءُ

تَسَتَّرْ بِالسَّخَاءِ فَكُلُّ عَيْبٍ يُغَطِّيهِ كَما قِيلُ السَّخَاءُ

"وأكثر ما يتجلى فيه الكرم إيقاد النيران، ونحرُ الجَزور، وإضافة اللاجئ" (الهاشمي:1992، ج2 ص10). والشعر الجاهليّ حافلٌ بإشارات تتناول هذه الصفة؛ فلم يخلُ شاعر من أن ينسب هذه الصفة لنفسه، ولآخرين غيرِه ممّن يمدحهم أو يرثيهم، مع رسمه لصور تُسهم في إبراز روعة تلبُّسِهم وقيامِهم بالأعمال والسلوكات المتصلة بها. ونحن نكتفي هنا بإيراد شواهد قصيرة على خلق الكرم ونرجئ التفصيل إلى مبحث الأخلاق في الأغراض الشعرية. ولننظر إلى هذه الصورة البديعة التي اختصرها الشاعر بكلمات يسيرة، يقول النابغة الذبياني في وصف ممدوحه (النابغة الذبياني: بلا تاريخ، 229؛ آيْ بِيلْدِيز: 936-960):

البحر البسيط

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَها خَيْرُ مُوقِدِ[4]

والكرمُ ليس شيئاً مطلوباً وقت الحاجة والضرورة وحدها ممّن يملكون ولا نملك، بل هو صفة يحب المرء ويفخر بأن يتحلى بها هو وأصحابُه في مجالسهم. يقول زهير بن أبي سلمى (الأعلم الشنتمري: 1980، 135):

البحر الوافر

وَقَدْ أَغْدُو عَلى ثُبَةٍ كِرامٍ نَشَاوَى وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ

لَهُمْ رَاحٌ وَراوُوقٌ ومِسْكٌ تُعَلُّ بِهِ جُلُودُهُمُ وَمَاءُ[5]

وإذا كان الكرم خُلقاً ممدوحاً مطلوباً فإن ضِده، وهو البخل، صفةٌ مذمومةٌ تجلب العار لصاحبها. يقول النابغة هاجِياً (النابغة الذبياني: 228):

البحر الطويل

أَلَا إِنَّما نِيرانُ قَيْسٍ إِذَا شَنَوا لِطَارِقِ لَيْلٍ مِثْلُ نَارِ الحُباحِبِ[6]

[4] تعشو: تقصِد

[5] ثبة: جماعة – نشاوى: سُكارى – راح: خمر – راووق: مِصفاةٌ للخمر – مِسك: طِيب – تُعلّ: تطيب.

2– الشجاعة:

لا شكّ أن للشجاعة معانيَ وتطبيقات عديدة في حياة الإنسان، لا تقف عند حدّ المواجهة الجسدية وتحدّي المخاطر الماديّة، من ذلك الشجاعةُ في محاسبة النفس مثلاً، والشجاعة في عدم التحرّج من قول الحقّ أمام الناس، لكننا في الواقع قد لا نجد هذا الاستخدام في الشعر الجاهليّ، فضلاً عن أننا لا نقع على استخدام كثير وواضح لهذا اللفظ نفسه، لكننا نجد الكلام واسعاً حول تطبيق عمليّ لهذا الخُلق فيما اصطُلِح على تسميته بشعر الحماسة؛ "وأكثر ما تتجلى فيه الشجاعة عندهم النّزالُ والدفاع عن الأهل والقبيلة ونجدة المستصرخ" (الهاشمي: 1992، ج2 ص10)، وذلك أن الشاعر العربي لا يستغني عن ادعاء الشجاعة وامتلاك مهارات الفروسيّة، وإن كان جباناً خالياً من أسباب القوة والقدرة على مواجهة الأعداء! هذا ما تفرضُه طبيعة الحياة البدويّة التي كان يعيشها في الصحراء أو القريبةِ منها في الحضر، فقد كانت الحياة –وما تزال– جافّة قاسية، والمطر قليلاً في أكثر مناطق الجزيرة العربية، وهي حياة كانت تشكل فيها الإغارة والسّلب للأموال والحيوانات مورداً مهماً للعيش، ولا مكان فيها للضعفاء. والشجاعة مطلوبة في الغازي المعتدي، وهي مطلوبة كذلك في صاحب الأرض والأنعام الذي يقع عليه الغزو والاعتداء، في بيئة تغيب فيها تعاليم الدين الإلهيّ وقوانين الفطرة السليمة والناضجة. والحديث عن خلق الشجاعة يستغرق كثيراً من شعر الفخر الشخصي والقبَلي، وفي المدح، وفي المقابل يكون الاتصاف بضده، وهو الجُبن، مثاراً للهجاء والسخرية. يقول عبيد بن الأبرص في الفخر الشخصي بالشجاعة (ابن الأبرص: 1957، 102):

البحر البسيط

هَذا وحَرْبٍ عَوانٍ قَدْ سَمَوْتُ لَهَا حَتَّى شَبَبْتُ لَها نَاراً بِإيقَادِ[7]

ويقول عمرو بن كلثوم مفتخراً ببطولة قومه وشجاعتهم (يعقوب: 1991، 72):

البحر الوافر

[6] شتوا: حلّ عليهم الشتاء – الحباحب: هو دُبابٌ يطير بالليل يُضيءُ ذنَبُه. كناية عن دِقّة ناره وخفوتِها، وعن بخل صاحب النار.

[7] عوان: شديدة – شببتُ: أشعلتُ.

مَتَى نَنْقُلْ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا يَكُونُوا فِي اللِّقَاءِ لَنَا طَحِينَا[8]

3- إغاثة الملهوف:

الملهوف كما نفهمه هو إنسان حلّ به مصيبة مفاجئة، أو خطر عظيم من صنع إنسان غيره فيكون مظلوماً، أو بليّة غير متوقعة من أقدار الله في الحياة فيكون مضطراً، وهو في الحالين يرجو وينتظر أن يجد لنفسه عوناً ورحمةً من الناس.

و"في الحديث: اللهم أغِثْنا. من الإغاثة. وبقول الواقع في بَلِيَّة: أغِثْني، أي فرّجْ عنّي. ويقال: استغثْتُ فلاناً، فما كان لي عنده مغوثةٌ ولا غَوْثٌ. أي إغاثةٌ" (ابن منظور: بلا تاريخ، مادة "غوث"). و"غاثه الله: نصره وأعانه..والاستغاثة: نداء من يخلّص من شدة أو يعين على دفع بليَّة" (مجموعة مؤلفين:2004، مادة "غوث").

تعدّ إغاثة الملهوف ونجدته من أهمّ الأخلاق العربية التي فخر بها الشاعر الجاهلي لنفسه، أو مدح بها غيره، أو رثى بها ميتاً. ويظهر من أهمية الوصف بها في الشعر أن حياتهم كانت عُرضةً للمصائب المفاجئة؛ فقد كانت حياتهم وأموالهم هدفاً دائماً للغزو، وهدفاً لوحوش الفلواتِ، وهدفاً للسيول المفاجئة وعوارض الطبيعة التي – في برهة أو ساعة من الوقت – كانت تدمّر الحياة وأسباب العيش تدميراً. وظاهرٌ أن تناوُل الشعراء لهذا الخُلق السامي متصل بحديثهم عن خلق الشجاعة أو الكرم، فخراً ومدحاً؛ فمِمّا هو متصل بالشجاعة قول زهير مادحاً (الأعلم: 1980، 34):

البحر الطويل

إِذَا فَزِعُوا طَارُوا إِلَى مُسْتَغِيثِهِمْ طِوَالَ الرِّمَاحِ لَا ضِعَافٌ ولا عُزْلُ[9]

ومن الشعر في هذا المجال متصلاً بالكرم قول الحارث بن حِلّزة مادحاً (يعقوب: 1991، 72):

[8] كناية عن القتل والإبادة.

[9] عزل: ج أعزل. هو الذي لا سلاح معه.

البحر البسيط

سَهْلَ الْمَبَاءَةِ مُخْضَرّاً مَحَلَّتُهُ مَا يُصْبِحُ الدَّهْرَ إِلَّا حَوْلَهُ حَلَقُ

لِلْمُنْذَرِينَ ولِلْمَعْصُوبِ لِمَّتُهُ أَنْتَ الضِّيَاءُ الذِي يُجْلَى بِهِ الأُفُقُ[10]

4- إجارَة المستجير:

في اللغة: "جاورَ الرجلَ ساكنَه. وجاور بني فلان: تحرَّم بجوارِهم. والجار: الذي يجاورك بيتَ بيتَ. والجار: الشريك في العقار، والحليف، والناصر. واستجاره: سأله أن يُجيره. ويقال للذي يستجير بك: جار. والجار: الذي أجرته من أن يظلمه ظالم. ومن عاذ بالله أي استجارَ به أجاره الله" (ابن منظور: بلا تاريخ، مادة "جور"). و"استجار بفلان: استغاث به والتجأ إليه. واستجار فلاناً: سأله أن يؤَمِّنَهُ ويحفظه. والجوار: العهد، والأمان" (مجموعة مؤلفين: 2004، مادة "جور").

إجارة المستجير باب من مكارم أخلاق العرب، وفيه نوع من خلق الشجاعة وكرم النفس، وهو مجال لكثير من شعر الفخر والمديح. هذا الحارث بن حلزة يُباهي من يفاخرهم بأن قومه مشهورون بحمايتهم لمن يلوذ بهم وقت المخاطر والحروب. يقول الحارث (يعقوب: 1991، 27):

البحر الخفيف

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّا سُ غِواراً لِكُلِّ حَيٍّ عُواءُ[11]

ويفخر عمرو بن كلثوم مثلَه قائلاً (يعقوب: 1991، 43):

البحر الوافر

أَلَمْ تَشْكُرْ لَنا أَبْنَاءُ تَيْمٍ وإِخْوَتُهَا اللَّهَازِمُ والقُعُورُ

[10] مخضراً محلته: هانئ السكن، والمقصود أنه مبارك – حلَق: حلقات المحتاجين إليه – المعصوب لمّته: المربوط شعر الرأس للخلف بسبب همّ وحاجة.

[11] غِواراً: إغارةً – عواء: صوت الذئب، والمقصود الضجيج والصياح.

بِأَنَّا نَحْنُ أَحْمَيْنَا حِمَاهُمْ وأَنْكَرْنَا وَلَيْسَ لَهُمْ نَكِيرُ

أمّا زهير فيدعو بالويل على آل حصن، حيث يعلن أنه قد لحقهم عار إلى الأبد بسبب رجل التجأ إليهم فقتلوه برجل منهم. يقول (الأعلم: 1980، 141-142):

البحر الوافر

سَتَأْتِي آلَ حِصْنٍ حَيْثُ كَانُوا مِنَ الْمَثُلَاتِ بَاقِيَةٌ ثِنَاءُ

فَلَمْ أَرَ مَعْشَراً أَسَرُوا هَدِيّاً وَلَمْ أَرَ جَارَ بَيْتٍ يُسْتَبَاءُ[12]

5- صلة الرحم، ورعاية الجار:

كثيراً ما تغيب فوارق التعبير بين الجار والقريب ذي الرحم حين الكلام في هذا الموضوع، فهؤلاء معاً في منزلة متقاربة، ولهما حق النجدة والغوث، والحمايةِ من خطر الأعداء، ومن خطر الجوع والفقر، ومن أسباب هذا التقريب علاقات المصاهرة المتداخلة في القبيلة، وكذلك شعور كل فرد قادر فيها بالمسؤولية عمّا حوله ممّا يخصّ القبيلة. ثم إن في القيام بحقّ القريب وحقّ الجار فرصة لنيل وسام الحلّي بخلقٍ لصيق يكون أحياناً الكرم أو يكون الشجاعة. وهذا النابغة ينحو باللائمة على قومه حين أحس منهم إهمالاً وتقصيراً بحق بعض أفراد العشيرة. يقول (النابغة الذبياني: بلا تاريخ، 153):

البحر الطويل

أَجِدَّكُمُ لا تَزْجُرُوا عَنْ ظُلَامَةٍ سَفِيهَاً، ولَنْ تَرْعَوا لِذِي الوُدِّ آصِرَهْ؟[13]

والحارث بن حلّزة يشير إلى الكوارث التي تحلّ بالقبيلة إذا اصطرع الأقارب فيها، حيث يصير الفرد – ويشير إلى نفسه – كأنه منقطع الذرية، ضعيفاً بلا حول ولا قوة، في مجتمع متناثر بين

[12] المثلات: ج مَثُلة: أن يُسَبَّ وينكَّل به – باقية: هجاء مستمر – الهديّ: ذو الحرمة – يُستباء: تؤخذ امرأته.

[13] الآصرة: الرحِم والقرابة.

الأرض والسماء، وفي بيئة تشتد حاجة الفرد فيها إلى أفراد حوله، ليحمل عنهم ويحملوا عنه. يقول (يعقوب: 1991، 70):

البحر الخفيف

قَذَفَتْكَ الأيَّامُ بِالْحَدَثِ الأكْـ ـبَرِ مِنْهَا، وَشَابَ رَأْسُ الصَّغِيرِ

وتَفَانَى بَنُو أبِيكَ فَأصْبَحْـ ـتَ عَقِيراً لِلدَّهْرِ أوْ كَالْعَقِيرِ

والممدوح عند زهير كثير الخير والمعروف؛ فهو يولي ابنَ عمّه عناية خاصة إذا نزلت به الملمّات، لكن نيران طعامه تدعو إليها أيضاً الضيف والمسكين واليتيم. يقول زهير (الأعلم:1980، 118):

البحر الخفيف

حَدِبٌ عَلَى الْمَوْلَى الضَّرِيكِ إذَا نَابَتْ عَلَيْهِ نَوَائِب الدَّهْرِ

ومُرَهَّقُ النِّيرانِ يُحْمَدُ فِي الـ ـلَأْواءِ، غَيْرُ مُلَعَّنِ القِدْرِ[14]

فهو يبعد نظره يحدّد جانباً غنياً بالأهمية في تلك الحياة جدير الفخر بالانتساب إليه؛ وهو العون في الملمات وإطعام الطعام في وقت السلم والأمان.

6– الوفاء، والوفاء بالعهد وبالوعد:

الوفاء في الاصطلاح الأدبي والاجتماعي هو "ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء" (الجرجاني: بلا تاريخ، 212). ويرى ابن عدي أنه "ليس يُعدّ وفيّاً من لم تلحقه بوفائه أذيّةٌ وإن قلّتْ. وكلما أضرّ به الدخول تحت ما يحكم به على نفسه كان أبلغ في الوفاء. وهذا الخُلق محمود، فإن من عُرِف بالوفاء كان مقبول القول في جميع ما يعد به. ومن كان مقبول القول كان عظيم الجاه" (ابن عدي: 1993، 57–58). وفي المقابل حكموا – لأهمية الوفاء – بأن من "فُقد فيه

[14] حدِب: مشفق – المولى: هنا ابن العمّ – الضريك: المضرور – مرقّق النيران: تُغشى بالغريب والضيف – اللأواء: الجهد والشدة.

فقد انسلخ من الإنسانية، فالناس مضطرون إلى التعاون، ولا يتم تعاونهم إلا بمراعاة العهد والوفاء، ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفع التعايش (الراغب الأصفهاني: 2007، 209-210).

وقد فخر الشعراء بنسبة صفة الوفاء إلى أنفسهم وإلى أقوامهم، ولعلّ أقرب معاني الوفاء هو غرض الرثاء بحدّ ذاته، فالراثي لا طمع له ولا حاجة عند المرثيّ الذي مات وبقيت ذكراه حاضرةً في شعور الشاعر. فلنقرأ لعبيد بن الأبرص قوله (ابن الأبرص: 1957، 25):

البحر الطويل

تَذَكَّرْتُهُمْ مَا إنْ تَجِفُّ مَدَامِعِي كَأنْ جَدْوَلٌ يَسْقِي مَزَارِعَ مَخْرُوبِ

وَبَيْتٍ يَفُوحُ الْمِسْكُ مِنْ حَجَرَاتِهِ تَسَدَّيْتُهُ مِنْ بَيْنِ سِرٍّ وَمَخْطُوبِ[15]

ويفخر عمرو بن كلثوم بوفاء قومه إذا عاهدوا وأقسموا الأيمان على فعل شيء. يقول (يعقوب: 1991، 82):

البحر الوافر

وَنُوجَدُ نَحْنُ أمْنَعَهُم ذِمَاراً وَأوْفَاهُمْ إذَا عَقَدُوا يَمِينَا[16]

بل إنهم جعلوا الثأر للمقتول نوعاً من الوفاء له، فعدّوا من لا يُثأرُ لهم أمواتاً ومن يُثأر لهم أحياءً. يقول الحارث بن حلّزة (يعقوب: 1991، 27):

البحر الخفيف

إنْ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةَ فَالصَّا قِبِ فِيهِ الأمْوَاتُ والأحْيَاءُ[17]

[15] مخروب: موضع لبني أسد – حجراته: جوانبه – تسديته: تبطنته، يعني دخلتُ فيه – سرّ ومخطوب: مواضع.

[16] الذمار: حريم الرجل وما يحميه. وهو أيضاً العهد والذمّة.

[17] مِلحة والصاقب: مواضع.

7– العِفّة:

العفّة في اللغة: "الكفّ عمّا لا يحِلُّ ويجْمُلُ. عَفَّ عن المحارم والأطماع الدّنيّة عِفَّةً وعفافاً.. وعفّ عن المسألة والحرص" (ابن منظور: بلا تاريخ، مادة "عفف"). والعِفَّة "ترك الشهوات من كل شيء، وغلَب في حفظ الفرج ممّا لا يحِلّ" (مجموعة مؤلفين: 2004، مادة "عفف"). وأمّا اصطلاحاً فقد عرّفها ابن عُديّ بأنها "ضبط النفس عن الشهوات، وقَسْرُها على الاكتفاء بما يقيم أوَدَ الجسد، ويحفظ صحّته فقط؛ واجتنابُ السّرَف والتقصير في جميع اللذات، وقصْدُ الاعتدال. وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه الْمُستحبّ، المتفَق على ارتضائه، وفي أوقات الحاجة التي لا غنى عنها..وهذه الحال هي غاية العِفَّةِ" (ابن عدي: 1993، 50). وتحدّث الراغب الأصبهاني بتفصيل اصطلاحيّ أدقّ، فيحدد أنها "لا تتعلّق إلا بالقوة الشهويّة..وهي المتعلقة بالغارَين وهما: البطن والفرج..وهي حالة متوسطة بين إفراط هو الشره، وتفريط هو جمود الشهوة، وهي أسّ الفضائل من القناعة والعفة والزهد وغنى النفس والسخاء. ومن اتّسم بسمة العفّة قامت العفّة له بحجّة ما سواها من الفضائل" (الراغب الأصفهاني: 2007، 224)، ثم يضع شرائط ليكون المتعفّف عفيفاً، "وهي ألا يكون تعفّفه عن الشيء انتظاراً لأكثر منه أو لأنه لا يوافقه، أو لجمود شهوته، أو لاستشعار خوفٍ من عاقبته، أو لأنه ممنوع من تناوله" (الراغب الأصفهاني: 2007، 225). في حين يختصر صاحب التعريفات تعريف المتعفف بأنه "من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة" (الجرجاني: بلا تاريخ، 127).

ونحن من بين تلك التفاصيل كلها يعنينا خلُق الصون وعدم الاقتراب من أشياء الآخرين وممتلكاتهم وخصوصياتهم وأعراضَهم، وفق آداب الفطرة الباقية، وبحسب بعض القواعد الاجتماعية السليمة التي كان يتبعها العاقلون في العصر الجاهليّ. ولعلّ أقرب مثال للعفّة في الشعر وأجمله ما نقرؤه عند عنترة حين يقول (مولوي: بلا تاريخ، 308):

البحر الكامل

أَغْشَى فَتَاةَ الحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا وَإِذَا غَزَا فِي الْجَيْشِ لَا أَغْشَاهَا

وَأَغُضُّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَأْوَاهَا

إنه وصف تفصيلي يشد الانتباه ويسترعي النظر، فهو لا يزور جارته إذا كان زوجها غائباً في الغزو، ويُشيح بنظره عنها إذا بدا خيالها إلى أن تدخل خيمتها أو بيتها.

وهذا عبيد بن الأبرص يجسّد خلق العِفّة بمعنى لغوي واضح وصريح، فهو لا يمُدّ بصره إلى ما ليس له، بل إنه يزجره عن ذلك. يقول (ابن الأبرص: 1957، 38):

البحر البسيط

وَمَا الطَّرْفُ مِنّي إلَى مَا لَسْتُ أمْلِكُهُ مِمَّا بَدِ لِي بِبَاغِي اللَّحْظِ طَمَّاحِ

والنابغة يؤكد عفّة نفسه عن حسد الناس في أموالهم، بدليل أنه لو رغب بجمعه لاستطاع ذلك بمدح أراذل الناس، ونيل المكافآت منهم. يقول (النابغة الذبياني: بلا تاريخ، 140):

البحر الطويل

وَكُنْتُ امْرَأً لا أمْدَحُ الدَّهْرَ سُوقَةً فَلَسْتُ عَلى خَيْرٍ أتَاكَ بِحاسِدِ

ومن أرقى صور التعفّف، وأنبلِها ما يفخر به عنترة؛ من أنه يخوض الحروب ويقاتل فيها ببسالة، فإذا كان وقت توزيع الغنائم انتحى جانباً وأعرض عنها. يقول (مولوي: بلا تاريخ، 209) :

البحر الكامل

يُخبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقائِعَ أنَّني أغْشى الوَغى، وأعِفُّ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

ومن العفّة صون اللسان عن بذيء الكلام وقبيحه. يقول عبيد (ابن الأبرص: 1957، 54):

البحر الطويل

لَعَمْرُكَ ما يَخْشى الجَليسُ تَفَحُّشي عَلَيْهِ، ولا أنْأى عَنِ الْمُتَوَدِّدِ

8- الإباء والعزّة:

في اللغة: "أبى الشيءَ يأباهُ إباءً: كرهه. والإباء: أشدّ الامتناع" (ابن منظور: بلا تاريخ، مادة "شرف"). و"أبى: استعصى. وأبى الشيءَ: ترفّعَ عنه. وله نفسٌ أبيّة: ذات ترفُّع" (مجموعة مؤلفين:2004، مادة "أبى").

و"العِزّ: القوة والشدة والغلَبة. والعزّ والعِزّة: الرّفعة والامتناع. والعزيز: هو الممتنع فلا يغلبه شيءٌ" (ابن منظور: بلا تاريخ، مادة "عزز"). و"العِزّة: الحَمِيَّة والأنفة": (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزّة بالإثم)" (مجموعة مؤلفين:2004، مادة "عزز"). وعرّفها بعضهم بأنها "صفة بها يجعل الإنسان نفسه في منازل الرفعة والاحترام من غير تكبر، ويعرف بها قدر نفسه" (مجموعة مؤلفين: 2006، ص51).

لعلّ هذه العزّة والأنفة من أوضح الصفات الخُلُقية التي كان العربي يصرّ على المباهاة والفخر بها، وقد تلازمتْ تاريخياً مع نفوره من الخضوع للسلطة وللقانون، وميله للاستقلال والحرية، بل الفوضى أحياناً. وهذه ليست صفةً شخصية فحسب، بل كان يُسبغها الشاعر على قومه وعشيرته، في حين أنه ينسب الذل والانكسار لأعدائهم. وإذا كان ينسب الذل لأولئك فإنه يتفنّن في رسم صور الكبرياء والعظمة والشموخ التي ينسبها لقومه، وهذه معان متصلة في كثير من الأحيان بخلق الشجاعة والكرم. هذا عبيد بن الأبرص يترفع عن أن يكون همّه في بطنه، وهو يصبر على الجوع ترفعاً وكرامةً. يقول (ابن الأبرص: 1957، 78):

البحر الخفيف

إِذَا مَا كَانَ عِرْضِي عِنْدَ بَطْنِي فَأَيْنَ مِنْ أَنْ أُسَبَّ بِهِ مَنَاصِي

فَإِنْ خَفَّتْ لِجُوعِ البَطْنِ رِجْلِي فَدَقَّ اللهُ رِجْلِي بِالْمُعَاصِي[18]

وهو يفخر بمجد قومه وشرفهم الرفيع الذي لا تبلغه أمجاد الآخرين. يقول (ابن الأبرص:1957، 138):

مجزوء الرجز

لَا يَبْلُغُ البَانِي وَلَوْ رَفَعَ الدَّعَائِمَ مَا بَنَيْنَا

[18] مناص: ملجأ ومفَرّ – المعاصي: الالتواء والوجع.

وهذا عمرو بن كلثوم يفخر بعزّ قومه في معنى مشابهٍ ، مذكراً بأن القوة هي التي تصنع المجد وتحميه، ولا يعنيه بعد ذلك إن كان هذا العزّ سبباً لظلم الآخرين. يقول (يعقوب: 1991، ص90):

البحر الوافر

لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَمْسَى عَلَيْهَا وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا

بُغَاةً ظَالِمِينَ وَمَا ظُلِمْنَا وَلَكِنْ سَنَبْدَأُ ظَالِمِينَا

9- الحِلم:

لا شك أن حياة البداوة بخشونتها وجفائها هي بعيدة في الأصل عن التطبّع بالحلم، وهذا ما يجعل الشاعر الجاهلي ينوّه بصفة الحلم لنفسه أو لممدوحه، خصوصاً أنه ينظر إلى نفسه باعتباره نخبة اجتماعية وثقافية. ولكن هذا لا يمنعه من التمدح بنقيض هذه الصفة النبيلة أحياناً وهو الطيش وسرعة الغضب والأنَفة! وهذا ما يؤكد غياب الضوابط الدقيقة والتقييم الحقيقي للأخلاق السائدة، بسبب غياب الوحي الإلهي آنذاك، وهو الذي نعتقد أنه الكاشف والمعيار لكل القيم والحقائق.

وعلى كل حال فالحِلم خلُق معناه متصل بالحكمة والعقل، ومن هنا تكرر استعمال الحلم بمعناها. يقول زهير في شعر الحكمة (الأعلم: 1980، 268):

البحر الطويل

إذَا أنْتَ لَمْ تَقْصُرْ عَنِ الْجَهْلِ والخَنَا أصَبْتَ حَلِيمَاً أوْ أصَابَكَ جَاهِلُ[19]

وهو يصف الممدوحين بأنهم أصحاب عقل راجح وصبر في معاملة الناس في مجالسهم، لكنهم يفقدون رجاحة عقولهم ورزانتهم إذا خاضوا الحرب، بسبب ما يظهر منهم من الفتك والعنف. يقول زهير (الأعلم: 1980، 203):

[19] الخنا: فُحش القول.

البحر الكامل

حُلَمَاءُ فِي النَّادِي إذَا مَا جِئْتَهُمْ جُهَلَاءُ يَوْمَ عَجَاجَةٍ وَلِقَاءِ

10- الصدق:

في اللغة: "الصدق نقيض الكذب. ورجلٌ صَدْقٌ نقيضُ رجلٌ سوءٌ. ورجلُ صِدقٍ: نِعمَ الرجل هو. وسيف صَدقٌ ورمحٌ صَدقٌ: الصُّلْبُ من الرماح. وفي الصِّدق منجاةٌ: الصِّدق ههنا الشجاعة والصَّلابة. وفي قول النابغة: في حالك اللون صَدقٍ: إنما الصَّدقُ الجامع للأوصاف المحمودة. وكذلك من الوعيد، إذا أوقعتَ بهم قلتَ صدقتُهم" (ابن منظور: بلا تاريخ، مادة "صدق").و"صدَق في الحديث: أخبر بالواقع. وصدَق في القتال: أقبل عليه في قوّة. وصدق فلاناً النصيحةَ والإخاءَ: أخلصهما له. وأخلص فلاناً الوعد: أوفى به". وفي التنزيل العزيز: (ولقد صدقكم الله وعدَه) (مجموعة مؤلفين: 2004، مادة "صدق"). وإذا كان الصدق في القول هو ترك الكذب والابتعاد عنه، فإن "الصدق في الفعل إتيانه، وعدم الانصراف عنه قبل إتمامه، والصدق في العزيمة الثبات حتى بلوغ الفعل، والصدق في الذاكرة قوتها على الحفظ" (صليبا: 1982، ج1، 722). بل إن الصدق في إطار وفهم عامّ واسع هو "ألا يكون في أحوالك شَوب، ولا في اعتقادك رَيب، ولا في أعمالك عيب. والصِّدِّيق هو الذي لم يدعْ شيئاً ممّا أظهره باللسان إلا حققه بقلبه وعمله (الجرجاني: بلا تاريخ، 113).

يتضح من هذه السياقات اللغوية أن الصدق معنى أخلاقيّ مهمّ وصِفةٌ إنسانية جامعة[20]، ولا يقتصر على معنى مطابقة القول للواقع. ومن هنا تكرر استعمال الوصف بالصدق في الشعر الجاهلي، وتعددت مقاصد هذا الاستعمال بما يوافق المعاني المعجمية المتعددة التي أوردناها. فها هو ذا عمرو بن كلثوم مثلاً يستعمل تركيب "صدَق القتالَ"، يقول مادحاً (يعقوب: 1991، 50):

[20] وقد أدرك العرب أن الصدق ليس خيراً على إطلاقه، يقول ابن عدي: "فإنه ليس بمستحسن صدق الإنسان إن سئل عن فاحشة كان ارتكبها، فإنه لا يفي حسن صدقه بما يلحقه في ذلك من العار والمنقصة الباقية اللازمة، وكذلك ليس يحسن صدقه إذا سئل عن مستجير استجاره فأخفاه".(مسكويه:2011، 62).

البحر الوافر

بِأَنَّ الْمَاجِدَ الْقَرْمَ ابْنَ عَمْرٍو غَدَاةَ نُطَاعُ قَدْ صَدَقَ القِتَالَا[21]

واستعمل النابغة تركيب "تصدُق الودّ"، قال (النابغة الذبياني: بلا تاريخ، 231):

البحر الكامل

لَوْ كُنْتَ تَصْدُقُ وُدَّهُ لَأَطَعْتَهُ إنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

أمّا زهير فاستعمل معنى الصدق في الإشارة إلى النسب الرفيع والأصل النبيل. قال (الأعلم: 1980، 152):

البحر الوافر

لَهُ فِي الذَّاهِبِينَ أُرُومُ صِدْقٍ وَكَانَ لُكِلِّ ذِي حَسَبٍ أُرُومُ[22]

11- الرحمة:

في اللغة: "الرحمة: الرقة والتعطّف..والرحمة في بني آدم عند العرب: رقةُ القلب وعطفه، ورحمة الله: عطفُه وإحسانه ورزقُه" (ابن منظور: بلا تاريخ، مادة "رحم"). و"الرحمة: الخير والنعمة. في التنزيل العزيز: (وإذا أذقنا الناس رحمةً)" (مجموعة مؤلفين: 2004، مادة "رحم"). وفي تحليل لصفة الرحمة نجد أنها أُطلِقَت "على إرادة فعل الخير، أو على العطف على الآخرين للتخفيف من آلامهم. وقد كان هناك تفريق دقيق بين الرحمة والرأفة، فذكروا أن "الرأفة أشدّ الرحمة" (مجموعة مؤلفين: 2006، 39)، في حين قال بعضهم "إن الرحمة إيصال المسرّة إلى المرء، والرأفة دفع المضرّة عنه. ويختلف الشعور بالرحمة باختلاف المثل العليا التي يتصورها الناس، فإذا كانت هذه المثل العليا مبنية على القوى المادية كانت الرحمة منقطعة، وإذا كانت مبنية على القوى الروحية كانت الرحمة أثبت وأوسع، ولا تنقلب الرحمة إلى محبة حقيقية إلا حينما يَعدّ الإنسان نفسه أخاً

[21] القرم: السيّد – نُطاع: قرية باليمامة.

[22] الذاهبين: الأجداد – أُروم: ج أرومةز الأصل الكريم – الحسب: كثرة المآثر.

لكل إنسان" (صليبا: 1982، ج1، 111). ويحلل ابن عديّ خلُق الرحمة فيرى أنه مركب من الودّ والجزع، وأن "الرحمة لا تكون إلا لمن تظهر منه لراحمه خَلّةٌ مكروهة، إمّا نقيصةٌ في نفسه، وإمّا محنة عارضةٌ. فالرحمة هي محبة للمرحوم، مع جزع من الحال التي من أجلها رُحِم. وهذه الحال مستحسنةٌ ما لم تخرج بصاحبها عن العدل، ولم تنته به إلى الجَوْرِ (ابن عدي: 1993، 56).

بهذه المعاني السالفة، وبعد هذا التفصيل؛ يمكن القول إن مساحة الرحمة في أخلاق الشعر واسعةٌ، ولتجلّياتها صور كثيرة لا تكاد تحصى، فكأن خلق الرحمة صفة جامعةٌ وبوتقة تنصهر فيها سلوكات وأفعال ومشاعر كثيرة، ونحن نقف على بعضها بإيجاز هنا. فهذا النابغة يرثي أبا قابوس فيجعله لرحمته باليتامى وعطائه للمحتاجين بمنزلة فصل الربيع من فصول السنة. إنه ممتلئ خيراً وأنساً وعطاءً. يقول النابغة (النابغة الذبياني: بلا تاريخ، 194):

البحر الطويل

وَكُنْتَ رَبِيعاً لِلْيَتَامَى وَعِصْمَةً فَمُلْكُ أَبِي قَابُوسٍ أَضْحَى قَدْ نَجَزْ

وهو يمدح من أغار على قومه ليفكّ الأسرى منهم لديه، فيصف الممدوح بأنه صاحب حظّ وافرٍ، وأنه حين ملك وانتصر داخلَ قلبه شيءٌ من الرحمة فلم يسرف في القتل والخشونة. فقد حاز خلُق البطولة وخلق الرحمة معاً. يقول (النابغة الذبياني: بلا تاريخ، 212):

البحر الطويل

صَبَحْتَ بَنِي ذُبْيَانَ مِنْهُ بِغَارَةٍ جَرَتْ لَكَ مِنْها السَّانِحَاتُ بِأَسْعُدِ

أَصَابَهُمُ قَسْراً فَأَضْحَوا عِبادَهُ فَجَلَّلَهَا نُعْمَى وَلَمْ يَتَشَدَّدِ

على أن خلق الرحمة يبدو بعيداً في العموم بعد الحروب، وتحلّ محله مشاعر الشماتة والتمتع بآلام الأعداء. ولا ينسى أن يخبرهم بشماتته بهم ليكتمل سروره، فتغيب الرحمة تماماً. يقول النابغة (النابغة الذبياني: بلا تاريخ، 211):

البحر الوافر

فَنِمْتُ اللَّيْلَ إِذْ أَوْقَعْتُ فِيكُمْ قَبَائِلَ عَامِرٍ وَبَنِي تَمِيمِ

وَسَاغَ لِي الشَّرَابُ وَكُنْتُ قَبْلاً أَكَادُ أَغَصُّ بِالْمَاءِ الحَمِيمِ[23]

12– العدل:

من العدل: الجزاء (مجموعة مؤلفين: 2004، مادة "عدل"). والعَدل اصطلاحاً في معناه الفلسفي المجرد يمكن تحديده بأنه "التقسّط اللازم للاستواء، واستعمال الأمور في مواضعها، وأوقاتها، ووجوهها، ومقاديرها، من غير سرَف ولا تقصير، ولا تقديم، ولا تأخير (ابن عدي: 1993، 68). فهو إذن "الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط" (الجرجاني: بلا تاريخ، 124).

لا شك أن طلب العدل هو من الفطرة الإنسانية التي تميل إليها النفوس بالبداهة ولا يُتوقع غيابُ قيمتِها وتقديرها ولو غابت الشرائع الإلهية، ولهذا إشارات عديدة وردت في الشعر، ولكن النصوص الشعرية – ويا للغرابة! – نقلت إلينا في المقابل إهمالاً وإعراضاً عن مفهوم العدل، بل تسفيهاً له في بعض الأحيان! وسوف تمرّ في عجالةٍ هنا على الفكرتين. هذا عمرو بن كلثوم يعبّر عن دهشته من ظلم أهل زوجته له، يقول (يعقوب: 1991، 67):

البحر الوافر

أَفِي لَيْلَى يُعَاتِبُنِي أَبُوهَا وإِخْوَتُهَا وَهُمْ لِي ظَالِمُونَا؟!

وهذا الحارث بن حلّزةَ يُنكر على من لا يعدلون في إطلاق الأحكام على قومه، ويحمّلونه ذنوبَ غيرهم، ويشبّه ذلك الظلم بتعليق الأحمالِ كلها على وسط البعير دون أجزاء جسمه الأخرى. يقول الحارث (يعقوب: 1991، 38):

البحر الخفيف

أَمْ عَلَيْنَا جَرّى العِبَادِ كَمَا نِيـ طَ بِجَوْزِ الْمُحَمَّلِ الأَعْبَاءُ؟

[23] غصَّ بالطَّعام أو الماءِ ونحوِهما : اعترض في حلقه فمنعه التَّنفّس والبلع – الحميم: الماء الحارّ. فالغصص بالماء البارد.

وفي هذا السياق كان حسان بن ثابت يتذكر أيامه الجاهلية مع الغساسنة و يمدحهم، وفي نهاية قصيدته افتخر بعدل قبيلته، مع أنهم في زمان الجاهلية (آيْ يِيلْدِيز، 2019: 290)، يقول حسان بن ثابت (ابن ثابت: 2006، 74-75):

البحر الكامل

وَتَزُورُ أَبْوابَ الْمُلوكِ رِكابُنا وَمَتى نُحَكَّمْ في الْبَرِيَّةِ نَعْدِلِ

وفي مقابل هذا الفهم الفطري السليم لخُلق العدلِ نقرأ مديحاً غريباً لزهير الموصوف بالعقل والحكمة، حيث إن ممدوحه إذا تعرّض للظلم فإنه قادر على أن ينتصف لنفسه، وإن هو لم يُظلَم فإن من بطولته أنه يبدأ غيره بالظلم! يقول زهير (الأعلم: 1980، 21):

البحر الطويل

جَرِيءٍ مَتَى يُظلَمْ يُعَاقِبْ بِظُلْمِهِ سَرِيعَاً، وإلا يُبْدَ بِالظُّلْمِ يَظْلِمِ

13- الصبر:

في اللغة: "صبرَهُ عن الشيء: حبسَهُ. والصبور معناه قريب من معنى الحليم، والفرق بينهما أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصبور كما يأمنها في صفة الحليم..ولو حبس رجل نفسه على شيء يريده قال: صبَرْتُ نفسي. والصبر نقيض الجزع. والصبر حبْسُ النفس عند الجزع. و(استعينوا بالصبر) أي بالثبات على ما أنتم عليه من الإيمان" (ابن منظور، لسان العرب. مادة "صبر"). و"صبر: تجلّد ولم يجزع. وصبر: انتظر في هدوء واطمئنان. وصبر على الأمر: احتمله ولم يجزع. وصبر عنه: حبس نفسه عنه. وصبر نفسَه: حبسها وضبطَها" (مجموعة مؤلفين: 2004، مادة "صبر").

وقيل: الصبر ضربان، أحدهما بدنيّ، كالصبر على الضرب الشديد، والألم العظيم، والآخر نفساني، وهو منع النفس من مقتضيات الشهوات. والصبر ضدّ الهلع والجزع والجبن والضجر

وضيق النفس والحرص والشرَه" (صليبا: 1982، ج1، 721). ويرى ابن عدي أن الصبر عند الشدائد "مركب من الوقار والشجاعة" (ابن عدي: 1993، 66).

لا شك أن الصبر قيمة خلقيّة عالية، وخصوصاً في حياة العربي القديم الملأى بالمشقات، فكل إنجاز في حياة الصحراء يحتاج إلى صبر وقوة على الاحتمال، وقد أشار القرآن الكريم الذي توالى نزول آياته منذ آخر عهد الجاهلية إلى فكرة الألم في حياة الإنسان عموماً والعربي خصوصاً، قال تعالى: (لقد خلقنا الإنسان في كبَدٍ) (سورة البلد، الآية4) أي في مشقة. ومن هنا كان طبيعياً أن تكون صفة الصبر مغرية بالانتساب إليها وادعائها، في بابَي الفخر والمدح، وأن تكون في الرجال علامةً مميزةً على كمال الرجولة، وأن يكون صاحبها حريّاً بلجوء الناس إليه واحتمائهم في كنفه. يقول عمرو بن كلثوم مفتخراً بقدرته وصبره (يعقوب: 1991، 47):

البحر الوافر

أَلَمْ تَرَ أَنَّنِي رَجُلٌ صَبُورٌ إِذَا مَا الْمَرْءُ لَمْ يَهْمُمْ بِصَبْرِ؟

وهو يفخر بصبر النساء من قومه إذا أصيب رجالهنّ في الحرب بين قتل وأسر، فهذا من أخلاق القوة وطباعِها، ومن أسباب صون القبيلة. يقول عمرو (يعقوب: 1991، 54):

البحر الطويل

مَعَاذَ الإِلَهِ أنْ تَنُوحَ نِسَاؤُنَا عَلَى هَالِكٍ أوْ أنْ نَضِجَّ مِنَ القَتْلِ

14- الحكمة والتعَقُّل:

في اللغة: "من صفات الله الحكَم والحكيم والحاكم، ومعاني هذه الأسماء متقاربة. والحكيم ذو الحكمة، والحكمة معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويقال لمن يُحسِن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم. وفي الحديث: إن من الشعر لحُكماً، أي أن في الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفَهِ وينهى عنهما. والحُكم: العلم والفقه والقضاء بالعدل. ويروى: إن من الشعر لحِكمةً، وهو بمعنى الحُكْم. ويقال للرجل إذا كان حكيماً: قد أحكمَتْه التجاربُ. والحكيم: الْمُتْقن للأمور" (ابن

منظور: بلا تاريخ، مادة "حكم"). و"علم الحكمة: الكيمياء والطب. والحكيم: الفيلسوف. والْمُحكَم: الْمُتقَن" (مجموعة مؤلفين2004، مادة "حكم"). واصطلاحاً هي "إحدى الفضائل الرئيسية الأربع. وتعني قوة الروح ومعرفة الحق" (وهبة: 2007، 284). فهي بهذا المعنى وسط "بين السفَه والبلَه" (مجموعة مؤلفين: 2006، 33). وهي أيضاً "علم يُبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية" (الجرجاني: بلا تاريخ، 81). وبذلك فهي "علم الأشياء الكلّية بحقائقها، واستعمال ما يجب استعماله من الحقائق" (جهامي: 1988، 289).

لا يعنينا المعنى الاصطلاحي في هذا المقام، فالعرب قوم بعيدون عن دهاليز الفلسفة المجرّدة، وهم أصحاب تأمل وجداني وإنساني عميق، أعانهم عليه صفاء الطبيعة وسكون الصحراء وهدوءُها، وقد صاغ شعراؤهم حِكَماً رائعة استخلصوها من تجاربهم في الحياة ومن بَعد طول أعمارهم، فكان من حِكَمهم موضوع يُدرَسُ من الشعر، وإن لم يكن غرضاً مستقلاً تُكتَب لأجله القصائد، وباختصار فإن الحكمة العربية هي رصيدهم من عالم الفلسفة والفكر. من ذلك قول عبيد بن الأبرص داعياً إلى الاهتمام بالغريب كما القريب، فكثيراً ما يعينك الشخص الغريب ويتجاهلُك من تظن فيه الخير والقرب. يقول عبيد (ابن الأبرص: 1957، 14):

قَدْ يُوصِلُ النَّازِحَ النَّائِي وَقَدْ يَقْطَعُ ذُو الهِمَّةُ القَرِيبُ

وهذا زهيرٌ يدعو إلى نظافة باطن الإنسان، لأن حقيقة المرء يكتشفها الناس مهما اجتهد في إخفائها والتمثيل عليهم. يقول زهير (الأعلم: 1980، 28):

مجزوء البسيط

ومَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ – وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النّاسِ – تُعْلَمِ

خاتمة:

فتلك عامة القيم الأخلاقية العليا والفضائل السلوكية التي رصدها الباحث في عموم أشعار أصحاب المعلقات في دواوينهم. ويمكن أن يندرج تحتها عناوين فرعية وسلوكات أخلاقية جزئية لا

تخرج عنها. أردنا أن نصوغ عرضاً عاماً وموجزاً لها، مع سرد لشواهد شعرية يسيرة لها، ونحن يمكن أن نستجلي تطبيقاتها العملية بوضوح أكبر وواقعية أكثر، من خلال دراسة تناول الشعراء للأغراض الشعرية المختلفة.

الْمَصادر والمراجع:

- ابن الأبرص، عبيد، تحقيق وشرح د. حسين نصار، ديوان عبيد بن الأبرص، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط1، 1377هـ-1957م.

- الأعلم الشنتمري، تح د. فخر الدين قباوة، شعر زهير بن أبي سلمى ، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط3، 1400هـ - 1980م.

- أسود، حسين، القيم الدينية في ميزان النقد العربي القديم، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق-مجلد 82-العدد4، عام 2007م.

- بابكر، ماجدة محمد، المروءة في الشعر الجاهلي دراسة أدبية تحليلية وصفية، الخرطوم، جامعة الخرطوم، رسالة ماجستير، 2005م.

- ابن ثابت، حسان، تح: وليد عرفات، ديوان حسان بن ثابت، بيروت، دار صادر، 2006م.

- الجرجاني، علي بن محمد ، تح: محمد صديق المنشاوي، معجم التعريفات، القاهرة، دار الفضيلة، بلا تاريخ.

- جهامي، د. جيرار، موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1988م.

- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، الحسين بن محمد، تح د. أبو اليزيد العجميّ ، الذّريعة إلى مكارم الشريعة، القاهرة، دار السلام، ط1، 1428هـ – 2007م.

- الشافعي، أبو عبد الله، محمد بن إدريس، تح د. محمد عبد المنعم خفاجي، ديوان الإمام الشافعي، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ط2، 1405هـ-1985م.

- صليبا، د. جميل، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، جزءان ، 1982م.

- ابن عديّ، يحيى، تح سمير خليل اليسوعي، تهذيب الأخلاق، بيروت، مطبعة مركز التراث العربي المسيحيّ، 1993م.

- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، جمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ-2004م.

- مجموعة مؤلفين، معجم المصطلحات الأخلاقية، بيروت، مركز باء للدراسات-بيت الكاتب، ط1، 2006م.

- مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، دراسة وتحقيق عماد الهلالي، تهذيب الأخلاق، بغداد-بيروت، منشورات الجمل، ط1، 2011م.

- مولوي، محمد سعيد، ديوان عنترة تحقيق ودراسة، بيروت، المكتب الإسلامي والشركة المتحدة للتوزيع، بلا تاريخ.

- ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم، لسان العرب، القاهرة ، دار المعارف، بلا تاريخ.

- النابغة الذبياني، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ديوان النابغة الذبياني، القاهرة، دار المعارف، ط2، بلا تاريخ.

- الهاشمي، السيد أحمد، جواهر الأدب، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، جزءان، بلا تاريخ.

- وهبة، مجدي، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت، مكتبة لبنان، ط2، 1984م.

- وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، القاهرة، دار قباء الحديثة، 2007م.

- يعقوب، د. إميل بديع، ديوان الحارث بن حلّزة، بيروت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1411هـ-1991م.

- يعقوب، د. إميل بديع، ديوان عمرو بن كلثوم، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1411هـ-1991م

- آيْ يِيلْدِيز، أسعد، "مدائح الاخطل للأمويين"، أنقرة، جامعة أنقرة، مجلة كلية اللغة والتاريخ-الجيوغرافيا، المجلد 57، العدد 2، ص 936-960.

AYYILDIZ, Esat (2017), "El-Ahtal'ın Emevilere Methiyeleri". Ankara Üniversitesi Dil ve Tarih-Coğrafya Fakültesi Dergisi, C.57, Sy. 2, ss. 936-960.

-آيْ يِيلْدِيز، أسعد، "مدائح حسان بن ثابت"،تحرير مريج أرآسلان، إزمير، جامعة إيجة، كتاب المتون التامة للمؤتمر الدولي للعلوم الإنسانية والتربية ،8-10 نوفمبر 2019، 286-298.

AYYILDIZ, Esat (2019), "Hassân B. Sâbit'in Methiyeleri", Ed. Meriç Eraslan, ICHES Uluslararası İnsani Bilimler ve Eğitim Bilimleri Kongresi Tam Metin Kitabı, İzmir, Ege Üniversitesi, 8-10 Kasım 2019, ss.286-298.